



النقد الموضوعاتي و قراءة النص قصيدة نخاف على حلم لدرويش نموذجاً

أ. شيتير رحيمة
جامعة محمد خيضر بسكرة

يشكل الإبداع الشعري تجربة منفردة عجز الإنسان عن تفسيرها ، فربط أثرها بالسكر و أوعزها في كثير من الحالات إلى الجن فالإنسان العربي القديم جعلها عملية مشتركة بين الإنس و الجن" فالشاعر وعاء لقول يسكنه و يتخلص منه بالتلفظ به ، انه موقع لاستحواذ و فريسة لخطاب غريب و وحشي ، و هكذا يتكفل بالقصيدة فاعلان اثنان الجنى المتخفي في جسد بشري ، و صاحب ذلك الجسد ذاته الذي يقتحم فجأة و لا يستطيع التحرر إلا إذا نطق بكلمات"¹ .

إذن فعل الكتابة هو فعل تحرر من عبء ما يقع الشاعر تحت تأثيره ، يبدأ بصورة غير واعية تجسدها صورة استحواذ الجنى ، و ينتهي بفعل واع يحقق التحرر أو التخلص عن طريق فعل الكتابة .

إذن بين الوعي و اللاوعي يقوم الشاعر بانجاز فعل الكتابة فيولد النص زخما من الرؤى و الخيالات ، يتلقفه جموع القراء حسب التيارات المختلفة و المناهج النقدية المتباينة فتولد بينهم و بين النصوص علاقات تفضي إلى الكشف والتجلي حسب مؤهلات القارئ و وسائله القرائية و لئن كانت هذه علاقة القارئ بالنص فالسؤال الملح ما موقع الذات المبدعة من نصها؟ هل من صدق يخلفه المبدع ، أو بالأحرى هل من أثر دال على المبدع في نصه ؟ هل يشكل حضور الذات المبدعة في النص حضوراً واقعياً فيغدو النص سيرة ذاتية ، أم أن حضور المبدع في عمله حدث قهري يتم رغماً عنه و يكون النص بالتالي فضاء للوقوف على الهواجس و الرغبات التي حركت العمل الإبداعي و حفزت على الكتابة .

في هذا الصدد يظهر النقد الموضوعاتي بوصفه فضاء لتقاطع النصي و النفسي، النسقي و السياقي ، مانحا فرصة سبر أغوار الذات المبدعة من خلال ما تتيحه اللغة من إمكانات "فاللغة ليست بريئة على الإطلاق" كما يقول بارت.

تعريف النقد الموضوعاتي :

يرى عبد الكريم حسن أن المنهج الموضوعاتي "بحث في الموضوع وهو بحث يهدف إلى اكتشاف السجل الكامل للموضوعات الشعرية"².

إذن يهتم المنهج الموضوعاتي بظهور موضوع ما في العمل الإبداعي انه الموضوع الأكثر إلحاحاً و الذي يتردد في النص بنسبة عالية .

أما سعيد علوش فيرى "أن المنهج الموضوعاتي بحث عن النقاط الأساسية التي يتكون منها العمل الأدبي و مقارنة الكشف عن هذه النقاط الحساسة التي تجعلنا نلمس تحولاتها و ندرك روابطها في انتقالها من مستوى تجربة معينة إلى أخرى شاسعة"³

يركز تعريف سعيد علوش على تتبع النقاط التي يتكون منها عمل أدبي ما، و مراقبة التحولات الطارئة عليه .

الجدار الفلسفي للنقد الموضوعاتي :

تأثر النقد الموضوعاتي بجملة من الأعمال الفلسفية على رأسها أعمال غاستون باشلار و جان بول سارتر، و ادموند هوسرل .
1- غاستون باشلار :

"لقد كان للتحليل النفسي فضل كبير فقد علمنا أن عقولنا عوالم خاصة ، و كل ما نستطيع أن نعلمه علماً يقينياً أن الكاتب، كتب الكلمات التي نقرأها لكن ما عناه من وراء هذه الكلمات شيء آخر ، بعض الكتاب يحلمون بفك هذا العالم الخاص وأولى بنا أن نبحث عن بنية الإنسان أو الشجرة التي نبع منها كل واحد"⁴.

يلخص هذا القول ما ذهب إليه غاستون باشلار في البحث عما يسميه العالم البدئي هذا المفهوم الذي وظفه النقد الموضوعاتي . ويعتبر غاستون باشلار في تصور الكثيرين الأب الروحي للنقد الموضوعاتي بما قدمه من رؤى و يعترف باشلار بأنه ليس محلل نفسياً غير انه يستخدم أدوات التحليل النفسي و مقولاته و مفاهيمه على امتداد أعماله و إذا كان التحليل النفسي الفرويدي يتجه إلى منطقة اللاوعي للبحث عن الصور و الرموز التي يحلها ، يتجه التحليل الباشلاري إلى أعماق منطقة من مناطق الوعي ، وهي المنطقة الأصلية ، منطقة الاحتكاك البدئي بالعالم"⁵ ان الغاية من البحث عن العالم البدئي هي الوصول إلى مصادر

الإبداع و عناصره و بالتالي يبحث التحليل الباشلاري " عن الصور في أصولها البشرية العامة فيراها ماثلة في العناصر الأربعة : الماء، الهواء، النار و التراب"⁶

2- **جان بول سارتر** : ان للوجودية تأثير بالغ الأهمية على النقد الموضوعاتي "إلى الحد الذي أعتبر بعض الدارسين جان بول سارتر من النقاد الموضوعاتيين"⁷

وقد استمد النقد الموضوعاتي بعض المفاهيم الأساسية من الفلسفة الوجودية كمفهوم الوصف " الذي يستطيع تحريض الفهم من الداخل"⁸ بالإضافة إلى مفهوم الخيار البدئي الذي يقود إلى الموضوع الذي شكل هاجسا للمبدع / الكاتب .

3- **تأثيرات الديموند هوسرل** :

لعل أهم المفاهيم الظاهرية التي تقبلها النقد الموضوعاتي قبولاً حسناً هي القصدية: " فكل وعي هو وعي بشيء ما و الوعي عند هوسرل هو وعي الذات بموضوعها ، و توجه الذات نحو الشيء الذي تريد أن تعيه هو ما نسميه بالقصدية"⁹ هذا و يميز هوسرل بين نوعين من الأنا : الأنا النفساني و الأنا المتسامي، تقوم العلاقة بينها على مبدأ الأبعاد أو الاختزال، يمكن مبدأ الاختزال من الوصول إلى الموضوع المهيمن و هي نقطة بالغة الأهمية في النقد الموضوعاتي .

مفاهيم النقد الموضوعاتي:

يتأسس النقد الموضوعاتي على جملة من المفاهيم يحددها عبد الكريم حسن في: الموضوع ، المعنى ، الحسية ، العلاقة التجانس ، الدال و المدلول ، شكل المضمون ، البنية ، العمق ، المشروع ، المحالة

تضم المفاهيم المذكورة أعلاه بعض المفاهيم الإجرائية التي تمكن الناقد من قراءة نص ما قراءة موضوعاتية ولعل المفهوم الإجرائي المركزي هو مفهوم الموضوع الذي يشكل بؤرة تلتف حولها مجموعة من المفاهيم الإجرائية الأخرى "الموضوع وحدة من وحدات المعنى هو وحدة حسية علائقية أو زمنية مشهود لها بخصوصيتها عند كاتب ما، كما أنها مشهود لها بأنها تسمح انطلاقاً منها و بنوع من التوسع الشبكي أو الخيطي أو المنطقي أو الجدلي ببسط العالم الخاص لهذا الكاتب"¹⁰

ان مفهوم الموضوع يستقطب مجموعة من المفاهيم الإجرائية التي تتيح مقارنة نص ما مقارنة موضوعاتية منها :

1/ **المعنى** : فالموضوع وحدة من وحدات المعنى

2/ **الحسية** : فالموضوع وحدة حسية

3/ **العلاقة** : الموضوع وحدة علائقية ، يتوسع بطريقة ما شبكية أو خيطية .

ان التوسع العلائقي يتم عن طريق مفهوم إجرائي آخر هو الاطرادية التي "تعد المقياس في تحديد الموضوعات ، فالموضوعات الكبرى لأي عمل أدبي ماهي الموضوعات التي تشكل المعمارية غير المرئية لهذا العمل و بدأ فهي تزودنا بمفتاح تنظيمه ، هذه الموضوعات هي التي تطور على امتداد العمل الأدبي ، وهي التي تقع عليها بغزارة استثنائية ، فالنكرار أينما كان دليل الهوسرل"¹¹

إذن الموضوع و التكرارية و العلاقات تمثل مفاهيم إجرائية تساعد على قراءة نص ما .

الفضاء التطبيقي

النص يقول محمود درويش في قصيدته نخاف على حلم .

"نخاف على حلم : لا تصدق كثيراً فراشتنا

و صدق قراييننا ان أردت ، و بوصلة الخيل ، صدق و حاجتنا للشمال

رفعنا إليك مناقير أرواحنا ، أعطنا حبة القمح يا حلمنا . هاتها هاتنا

رفعنا إليك الشواطئ منذ أتينا إلى الأرض من فكرة أو زنا موجتين

على صخرة في الرمال

ولا شيء لا شيء . نطفو على قدم من هواء ... هواء تكسر في ذاتنا

ونعرف أنك ترتد عنا ، و تبني سجونا تسمى لناحية البرتقال

و نحلم ... يا حلما نشتهي ، و نسرق أيامنا من تجليه في ما مضى من

خرافتنا

نخاف عليك و منك نخاف . اتضحنا معا ، لا تصدق إذن صبر زوجاتنا

سينسجن ثوبين ثم يبعن عظام الحبيب ليبتعن كأس الحليب لأطفالنا

نخاف على الحلم منه و منا . و نحلم يا حلمنا . لا تصدق كثيراً فراشتنا"¹²

يشكل النص الذي أمامنا تجربة إبداعية تظهر شيئاً و توارى أشياء ، كما تكشف عن الحالة النفسية للشاعر و التي يبدو أنها منشطرة بين موضوعتين موضوعة الخوف ، و موضوعة الحلم ، ليتم في الختام تلاشي موضوعة لصالح الموضوعة الأخرى . و لمعرفة الموضوعة الأكثر حضوراً في النص نلجأ إلى الطريقة العلمية القائمة على الإحصاء ، ان عملية الإحصاء تهفو إلى الوصول للموضوعة المهيمنة في النص ، يتم الإحصاء عبر مرحلتين :

المرحلة الأولى إحصاء لفظة الموضوعة ، و تكرارها في النص .

المرحلة الثانية إحصاء ترسيمات الموضوعة الواحدة .
ان النص ينقسم كما أورده محمود درويش إلى ثلاثة مقاطع نصية يضم كل مقطع نصي عدد معين من لفظتي موضوعتي
الخوف و الحلم وفق التالي

المقطع الأول	الخوف	الحلم
1	1	1
المقطع الثاني	0	2
المقطع الثالث	3	3

ان المقطع الأول و الثالث يفضيان إلى تساوي الحلم و الخوف بينما يبرز المقطع الثاني غلبة موضوعة الحلم لفظيا أقول لفظيا
لان إحصاء التكرار لا يتم على المستوى اللفظي فحسب بل يتم على مستوى الترسيمة "التي تشكل وحدة أصغر من الموضوع و
تتيح رصد تطور العمل الأدبي"¹³

يكشف المقطع النصي الثاني من القصيدة على حضور ترسيمات لموضوعة الخوف بشكل يفوق ترسيمات الحلم .
ترسيمات الخوف
نطفو على قدم من هواء

نعرف أنك ترتد عنا
الاشتهاء

يبني لنا سجونا
الخرافة

هواء تكسر في ذاتنا

إذن يكشف النص أن موضوعة الحلم تتلاشى لصالح موضوعة الخوف و يتجسد هذا بدءا من العنوان.

تمفصلات موضوعة الخوف

1- الخوف و الرغبة في الحياة :

يفتح النص بارتباط الخوف بالجماعة نخاف على حلم تليه عبارة لا تصدق كثيرا فراشاتنا لينتهي السطر ، تاركا علامات
استفهام كبرى .

السطر الثاني يفتح بفعل أمر صدق

لا تصدق كثيرا فراشتنا ان الفراشات ترتبط بالحلم بينما ترتبط القرابين بالخوف فالمرء عادة ما يقدم القران انقاء لأمر ما ان هذا
يعضده فعل صدق الثاني، حجاتنا للشمال ان الحاجة للأخر تجعل الإنسان تابع لمن يحتاج مما يعمق دلالة موضوعة الخوف

ان موضوعة الخوف تتعمق من خلال طبيعة الحلم أو ما يحلم به المتكلم.

رفعنا إليك مناقير أرواحنا أعطنا حبة القمح يا حلمنا هاتها هاتنا

ان الحلم يعمق دلالة الخوف فأقصى ما يطلب من الحلم هو حبة القمح إبقاء على حياة الأفراد من الهلاك، فحبة القمح =
الحياة

هاتها هاتنا

ان الحلم بحبة القمح التي تمثل الحياة استنزف الأفراد فعلية استجداء الحلم قائمة على حقيقتين الأولى تمثل طلب الحياة المسجد
في قول الشاعر :

رفعنا إليك مناقير أرواحنا أعطنا حبة القمح

والحقيقة الثانية تتمثل في ما قدم في سبيل الحصول على حبة القمح/الحياة والمسجد في قول الشاعر:

رفعنا إليك الشواطئ منذ أتينا إلى الأرض

فالشواطئ ترتبط بالماء عنصر الحياة الأول

إذن يبدو أن الحلم يمثل عنصرا مقاوما للخوف فهل سيكشف النص أن الحلم في تصور الشاعر فعل مقاوم للخوف
2-الحلم ومقاومة الخوف :

ان الحلم الذي كان يهفو الشاعر لأن يكون عنصرا مقاوما للخوف تلاشى أمام الخوف

ولا شيء لا شيء ، نطفو على قدم من هواء

ان ما كان يؤمل من الحلم لا سبيل للوصول إليه انه فراغ تعمقه التكرارية و لا شيء لا شيء وما يسفر عنه الحلم هو تعميق
لموضوعة الخوف و حلول لبدائله التكسر ، الارتداد ، السجون .

ان التقاف الدلالات حول موضوعة الخوف يلقي بالظلال العكسية على الحلم و يبتلعه ليحوله اشتها فخرافة .

ونحلم يا حلما نشتهي و نسرق أيامنا من تجلية في ما مضى من خرافاتنا .

3-انتصار الخوف :

ان حضور موضوعة الخوف يتعمق فالمقطع النصي الأخير يبتدئ بجملة نخاف عليك ليتحول إلى نخاف منك ان الخوف الذي
كان مرتبطا بالحلم

-خفاف على الحلم- يصل في ختام النص إلى خوف من الحلم ، و يبرز انتصار الخوف و حضوره الطاعى في عدة نقاط :

1- التكرار اللفظى للخوف : نخاف عليك ، منك نخاف .

2- انكسار رمز الصبر الذى تجسده -بينيلوب - التى ظلت تتسج و تتقض نسجها الى ان عاد زوجها، يستحضر النص هذا الرمز الأسطوري منكسرا يقول الشاعر :

لا تصدق إذن صبر زوجاتنا سينسجن ثوبين ثم يبعن عظام الحبيب

ان الفعل الممارس من طرف الزوجات و الذى يقوم على تقويض نموذج بينيلوب فعل يدعو إليه الخوف على الأطفال المهددين بالموت فتضحى النساء بالوفاء و الصبر ابتغاء للحياة ، ليختتم النص بالخوف على الحلم و منه .

ان موضوعة الخوف وجه ظاهر يخفي موضوعة أخرى تسيره و تقف حجرة عثر في وجه الحلم، أنها موضوعة الموت الهاجس الذى يطارد الفلسطينى أينما حل ، في الهواء و الأرض يطارده في حبة القمح و جنة البرتقال و كأس الحليب .

الهوامش

- 1 -عبد الفتاح كيليطو، لسان ادم ترجمة عبد الكبير الشرقاوي ، دار توبقال الدار البيضاء المغرب ط1 ص37
- 2- عبد الكريم حسن، المنهج الموضوعى النظرية و التطبيق، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع بيروت ط1/ 1983 ص 120
- 3 -سعيد علوش ، النقد الموضوعى ، شركة بابل للطباعة و النشر و التوزيع الرباط ط1 /1989، ص 12، 13 .
- 4 -مصطفى ناصف، ه اللغة و التفسير و التواصل سلسلة عالم المعرفة المجلس الوطنى للثقافة و الفنون الكويت .
- 5 - عبد الكريم حسن مرجع سابق ص 19
- 6 - نفسه .
- 7 - علي زغبنة ، هاجس الحرية في الشعر العربى المعاصر ، دراسة موضوعية ، محمد مفتاح الفيتورى نموذجا أطروحة دكتوراه جامعة باتنة / الجزائر 2003-2004 ص 57
- 8 - عبد الكريم حسن مرجع سابق ص 25.
- 9 - محمد بلوحي ، النقد الموضوعى الأسس و المفاهيم منتديات الدرر. <http://www.dorarr.ws/forum/archive/index.php/t-12535.html> .
- 10 - ع . الكريم حسن .مرجع سابق ص 39
- 11- نفسه ص 41
- 12 - محمود درويش، ديوان ورد أقل قصيدة نخاف، دار العودة بيروت/ لبنان ط6، 1993، ص 55
- 13 - عبد الكريم حسن مرجع سابق ص 12

© مخبر وحدة التكوين و البحث في نظريات القراءة و مناهجها.
جامعة محمد خيذر بسكرة، الجزائر. 2009.

<http://labreception.net>